

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرُكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا
وَمَا نَرُكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَمَا نَرَى
لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: 27]

❁ مُنَاسِبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

إِثَارَةُ الشُّبُهَاتِ
مَسَلُّكَ الْمُفْتَرِينَ،
وَحِيلَةُ الْمُضَلَّلِينَ

لَمَّا حَكَى رَبُّ الْعِزَّةِ سُبْحَانَهُ عَنْ نُوْحٍ ﷺ أَنَّهُ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى عِبَادَةِ
اللَّهِ تَعَالَى حَكَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ طَعَنُوا فِي نَبِيِّتِهِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الشُّبُهَاتِ؛
لِيَبَيِّنَ لِمَكْذِبِي مَكَّةَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَيْسَ بِدَعَا، وَأَنَّ حَالَهُ مَعَهُمْ كَحَالِ
مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ ﷺ مَعَ أَقْوَامِهِمْ جَمْلَةً وَتَفْصِيلًا⁽¹⁾.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿الْمَلَأُ﴾: المَلَأَ: مصدرٌ مَلَأْتُ الإِنَاءَ، وهو الامْتِلَاءُ. والمِلءُ: اسمٌ
ما يَأْخُذُهُ الإِنَاءُ مِنَ الْمَاءِ إِذَا امْتَلَأَ⁽²⁾. وَأَصْلُهُ مِنَ الْمُسَاوَةِ وَالْكَمَالِ فِي
الشَّيْءِ⁽³⁾، وَالْمَلَأُ: لَجَمَاعَةٍ مِنَ النَّاسِ، يَجْتَمِعُونَ لِلتَّشَاوُرِ وَالتَّحَادُثِ؛
لَأَنَّ مِنْ مَعَانِي الْمَلَأِ أَيْضًا التَّشَاوُرَ⁽⁴⁾. وَكَذَلِكَ الْمَلَأُ: أَشْرَافُ النَّاسِ
وَرُؤَسَاؤُهُمْ؛ سَمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ مُمْتَلِئُونَ بِمَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ، وَلِأَنَّهُمْ يَمْلَأُونَ
الْقُلُوبَ هَيْبَةً، وَالْعُيُونَ جَلَالَةً⁽⁵⁾ وَمَالَاتُهُ عَلَى الْأَمْرِ: عَاوَنَتُهُ وَظَاهِرَتُهُ
عَلَيْهِ، وَصَرَّتْ مِنْ مَلَأَتِهِ. وَتَمَالَؤُوا عَلَى فُلَانٍ: اجْتَمَعُوا عَلَيْهِ⁽⁶⁾.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 24/520، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/140، والبقاعي، نظم الدرر: 9/269، ورشيد رضا، تفسير المنار: 12/51، والراغب، تفسير الراغب: 12/24، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/45، والهريري، حقائق الروح والريحان: 12/313.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ملأ).

(3) ابن فارس، معاني اللغة: (ملأ).

(4) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ملأ).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (ملأ).

(6) الرَّاغِب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ملأ).

(2) ﴿أَرَادِلْنَا﴾: الرِّذْلُ والرَّذِيلُ والأَرَذَلُ: الدُّونُ مِنَ النَّاسِ، والرَّذِيءُ من كلِّ شيءٍ⁽¹⁾. ومعناه المحوريُّ: تميُّزُ الشيءِ ضعيفًا، رديئًا كان أو فاسدًا⁽²⁾.

ورَذُلٌ يَرَذُلُ، ومصدره رَذَالَةٌ. والموصوفُ به الأَرَذَلُ والرَّذِيلُ والرَّذَلُ، وجمع الأَرَذَلِ: الأَرَذَلُ، والأَرَذَلُونَ، والأَرَذَالُ. وجمع الرَّذِيلِ: الرَّذَلَاءُ. وجمع الرَّذَلِ: الرَّذَلُونَ. وجميعهم بمعنى واحدٍ، وهو الخسيسُ أو الدَّنِيءُ من كلِّ شيءٍ، المرغوبُ عنه لرداءته وخِسَّتِهِ⁽³⁾. وفي قول الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعَكَ الْأَرَذَلُونَ ۝﴾ الشعراء: [III]. قال قومُ نوحٍ لنوحٍ: اتَّبِعْ أَرَادِلْنَا، نسَبوهم إلى الحياكةِ والحجامةِ، والصَّنَاعَاتِ لَا تَضُرُّ فِي بَابِ الدِّيَانَاتِ⁽⁴⁾. وفي قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادِلْنَا بِأَدَى الرَّأْيِ﴾. أي: أَخَسَّأُونَا⁽⁵⁾.

(3) ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾: بدا الأمرُ، يبدو بَدَوًا وبُدُوًا: ظهرَ. وأبديته: أظهرته⁽⁶⁾. وأصله من ظهور الشيءِ⁽⁷⁾، وبادي الرَّأْيِ: ظاهره. إذا كان بغير همزٍ، وإذا هُمَزَتْ: يكونُ مِنَ الفعلِ بدأتُ، معناه: أوَّلُ الرَّأْيِ. وبكليهما جاء قولُ الله تعالى حكايةً عن قومِ نوحٍ: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادِلْنَا بِأَدَى الرَّأْيِ﴾. فعلى قراءةِ بادي الرَّأْيِ: اتَّبِعوك، وهم أَرَادِلْنَا فيما يظهرُ لنا مِنَ الرَّأْيِ. وعلى قراءةِ الهمزِ معناه: في أوَّلِ الرَّأْيِ وابتدائه⁽⁸⁾.

(4) ﴿فَضْلٌ﴾: الفضلُ: الزَّيَادَةُ عَلَى الْاِقْتِصَادِ، وكذلك الخَيْرُ أيضًا. وهو ضدُّ النَّقْصِ والنَّقِيصَةِ، وجمعه: فُضُولٌ⁽⁹⁾. والإِفْضَالُ: الإِحْسَانُ. يقالُ أَفْضَلَ الرَّجُلُ عَلَى غَيْرِهِ: أَنَالَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ. وكذلك تَفَضَّلَ عَلَيْهِ، بالمعنى نفسه⁽¹⁰⁾، وَالْفَضْلُ أيضًا: الشَّرْفُ،

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رذل).

(2) جبل، للعجم الاشتقاقى للوصل: (رذل).

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والزَّاعِب، المفردات، والسمين الحلي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رذل).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رذل).

(5) الزبيدي، تاج العروس: (رذل).

(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بدا).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدا).

(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والسمين الحلي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بدا).

(9) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، للمجل، والزَّاعِب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).

(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).

يقال: فَضْلٌ يَفْضُلُ فَضْلاً: شَرَفٌ. وَرَجُلٌ فَاضِلٌ، أَي: ذُو فَضْلٍ⁽¹⁾.
و"الفضل ضربان: محمودٌ، كفضل العلم والحلم. ومذمومٌ: كفضل الغضب على ما يجب أن يكون عليه، والفضل في المحمود أكثر استعمالاً، والفضول في المذموم"⁽²⁾. ومعناه المحوري: زيادة في الشيء متميِّزة عنه⁽³⁾.

(5) ﴿نُظُنُّكُمْ﴾: الظَّنُّ: "اسمٌ لما يحصلُ عن أَمارةٍ، ومتى قويَتْ أدَّتْ إلى العلم، ومتى ضعفتْ جدًّا لم يتجاوزْ حدَّ التَّوَهُّمِ"⁽⁴⁾، فهو يأتي بمعنى اليقين وبمعنى الشكِّ كذلك⁽⁵⁾، ومعناه المحوري: "توقُّع وجود شيء مهمٍّ في باطنٍ لأَمارةٍ قويَّةٍ على ذلك"⁽⁶⁾، ومنه قوله تعالى حاكياً قولَ الملأ من قوم نوح: ﴿بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَاذِبِينَ﴾⁽⁷⁾. أي: نتيقنكم كاذبين.

❁ المعنى الإجمالي:

فقال الكبراء والأشراف رادّين دعوة نوح ونبوّته ﷺ: ما نراك إلا آدمياً مثلنا في الخلق والصورة والجنس، ولا مزيّة لك علينا تخصُّك بالنبوة ووجوب الطاعة دوننا؛ وذلك على سبيل الإنكار والمكابرة والتكذيب، وما نراك اتّبعك وأطاعك في دعوتك إلا الذين هم سفّلتنا وأخسأؤنا من أهل المهن المحتقرة من غير تفكّر وتدبّر وتروّ في بادئ رأيهم فيما يظهر لنا، وما نتبيّن كذلك لكم علينا من فضل من علم أو قوّة أو أصالة رأيٍ نلتموه بمخالفتكم إيانا في عبادة الأوثان إلى عبادة الله؛ حتّى نتبعكم ونقبل قولكم، بل نزنكم كاذبين

دعوة الأنبياء
مواجهة
بالتكذيب من
التكبرين،
وبالتسليم من
المستضعفين

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).

(2) الرّاعب، المفردات، والسمين الحلي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (فضل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (فضل).

(4) الرّاعب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (ظن).

(5) الخليل، العين، والأهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ظن).

(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ظن).

(7) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/369.

فيما تدعونه لكم من البرِّ والصَّلاحِ والعبادةِ والسَّعادةِ في الدَّارِ الآخرةِ إذا صرَّتمُ إليها⁽¹⁾.

❖ الإيضاحُ اللَّغَوِيُّ والبَلَاغِيُّ:

معنى الفاءِ ودَلالَتُها في ﴿فَقَالَ﴾:

الفاءُ عاطفةٌ، عطفُ بها قولُ الملأ من قومِه على فعلِ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ للإشارةِ إلى أنَّهم بادَّروه بالتَّكذيبِ والمجادلةِ الباطلةِ لما قال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ إلى آخره. ولم تقعْ حكايةُ ابتداءِ محاورَتهم إيَّاه بـ (قال) مجرَّدًا عنِ الفاءِ كما وقعَ في الأعراف؛ لأنَّ ابتداءَ محاورَتِه إيَّاهم هنا لم يقعْ بلفظِ القولِ، فلم يحكْ جوابُهم بطريقةِ المُحاوراتِ بخلافِ آيةِ الأعراف⁽²⁾، فقوله: ﴿فَقَالَ﴾؛ أي: فتسبَّبَ عن هذا النُّصحِ العظيمِ أن قال أشرافُ قومِه: ﴿مَا نَرْزُكُ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾⁽³⁾، ودَلالةُ الفاءِ هنا هي بيانُ السُّرعةِ والمبادَرةِ؛ أي: فبادَرَ الأشرافُ والزُّعماءُ الذين كَفَرُوا من قومِ نوحٍ ﷺ إلى الجوابِ؛ ليكونَ الدَّهْماءُ تبعًا لهم كعادَتِهِم، وليُبطلوا بمبادرتِهِم إلى الرَّدِّ دعوتهِ بزعمِهِم⁽⁴⁾.

سِرُّ الإسنادِ في ﴿الْمَلَأُ﴾:

أُسندَ الفعلُ إلى الفاعلِ المحلَّى باللامِ في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ لتعيينِ الكافرينِ من قومِ نوحٍ ﷺ، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ فيه تعيينٌ للمرسَلِ إليهم، وهم جميعُ أفرادِ قومِ نوحٍ ﷺ، فلمَّا قال سُبْحانَه بعدَه: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تعيَّنَ أنَّ الذين كفروا همُ الملأُ، وهم طائفةُ الأشرافِ والكبراءِ من قومِ نوحٍ ﷺ، فأخرجتِ اللامُ التي في ﴿الْمَلَأُ﴾ غيرَ الملأِ من كبيرةِ الكفرِ.

مُبادَرةُ
أشرافِ الكفَّارِ
وزعمائِهِم إلى
تكذيبِ نوحٍ
ومجادلَتِه
بالباطلِ

المُبادِرون بالكفرِ
هُمُ الملأُ من قومِ
نوحٍ ﷺ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/379، والبغوي، معالم التنزيل: 4/171، والراغب، تفسير الراغب: 12/25.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/45.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/269.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/52.

معنى اللام ودلالتها في: ﴿الْمَلَأُ﴾:

اللام في قوله: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ هي لامُ العهد، وهي هنا للعهد الحُضوري، والمقصودُ بها الملاء الحاضرون في المجلس الذي كان يجلسُ فيه أكابرُ قومِ نوحٍ وأشرافُهم إذ قدِمَ عليهم نوحٌ ﷺ ليدعُوهم إلى عبادة الله وحده ونُبذِ عبادة الأصنام.

دلالة اسم الموصول ﴿الَّذِينَ﴾:

وُصِفَ الملاء الكافرون من قومِ نوحٍ ﷺ بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهو اسمٌ موصولٌ خاصٌّ، وجاءت صلته جملةً فعليةً، فأما التعبيرُ بالموصولِ فلأنه أريدَ به الوصفُ بما تضمَّنَتْه صلةُ الموصول؛ أي أنه سُبْحانه وصفَهم بالكفر لِدَمِّهم والتَّسجيلِ عليهم بذلك من أوَّلِ الأمرِ، لا لأنَّ بعضَ أشرافهم ليسوا بكفرة⁽¹⁾. وأما التعبيرُ بالماضي في جملةِ الصِّلةِ فللإكيدِ على أنَّ هذا الوصفُ قد تحقَّقَ فيهم وتمكَّنَ منهم، وكأنَّهم - لفرطِ إعراضهم عن الحقِّ - كفروا مِن قَبْلِ ما تأتيهم الدَّعوةُ إليه!

دلالة حرف الجرِّ ﴿مِنْ﴾ ومعناه:

يجوزُ أن تكونَ ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ تبعيةً أو لبيان الجنس، فعلى الأوَّل يكونُ المعنى أنَّ الملاء هم بعضُ قومِ نوحٍ ﷺ، وقد مُلئوا بالكفر، أمَّا البقيَّةُ الذين وصفَهم الملاء بقولهم: ﴿أَرَادُوا لَنَا﴾ فهمُ الذين آمنوا به واتَّبَعوه، وعلى الثَّاني يكونُ المعنى أنَّ الكافرين ما هم إلَّا طائفةٌ من قومِ نوحٍ ﷺ، فليسوا غرباءَ عنهم، وليسوا بوافدين، بل هم من جنسِ القومِ.

سِرُّ الإضافة في ﴿قَوْمِهِ﴾:

إضافة الضميرِ العائدِ إلى نوحٍ ﷺ إلى كلمةِ (قوم) في قوله

أَوَّلُ الْكَفَرَةِ
لِلْجَادِلِينَ مِنْ
قَوْمِ نُوحٍ ﷺ
هُمْ الْأَشْرَافُ
وَالزَّعَمَاءُ
الْحَاضِرُونَ

شِدَّةُ إِعْرَاضِ
هَؤُلَاءِ الزَّعَمَاءِ
تَبَيَّنَ وَكَأَنَّ
الْكَفَرَ تَحَقَّقَ فِي
نَفُوسِهِمْ قَبْلَ
سَمَاعِ الدَّعْوَةِ

أَوَّلُ الْكَافِرِينَ
بَنُوحٍ ﷺ طَائِفَةٌ
مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ

(1) الألويسي، روح المعاني: 6/237.

تعالى: ﴿مِنْ قَوْمِهِ﴾ يبين أنهم أقارب أعزّة؛ أي: الذين هم في غاية القوة لما يريدون محاولة القيام به⁽¹⁾، فهذه الإضافة تدل على أن طعنة الألم بالعتوّ والاستكبار والعصيان جاءت من الأقربين الذين يُضافون إليه قرابةً ونسباً ويضاف هو إليهم كذلك، وفي هذا تسليّة للنبي ﷺ كي لا يحزن قلبه الشريف بما يُلاقيه من قومه وبعض أعمامه من الكفر والعداء.

الغرض من القصير ﴿مَا نَزَلْنَا إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾:

عبر عن قيل الملام من قوم نوح ﷺ بأسلوب القصير لإفادة عدد من الأغراض، منها:

التوكيد؛ فإن القصير يُعدُّ درجةً عليا من درجات التوكيد⁽²⁾، والتعريض، وهذا من مرامي القصير⁽³⁾، والغرض منه التعريض بنوح ﷺ، فقد أرادوا أن يقولوا: ما دمت بشرًا مثلنا فلم اختصك الله بالنبوة من دوننا؟ وهذا أيضًا ردٌّ على كفار قريش الذين قالوا للنبي ﷺ: مثلما قال قوم نوح لنوح ﷺ. وقد جاء القصير بالنفي والاستثناء وهو أكد صور القصير وأعمها وأشملها خصوصًا إذا جاء مُفرغًا، إضافةً إلى ما تتضمنه (إلا) من معنى التخصيص⁽⁴⁾، كما أن القصير باستخدام النفي والاستثناء يوجّه إلى المخاطب المنكر أو من ينزل منزلته⁽⁵⁾، فيه دليل على أنهم نزلوا نوحًا ﷺ منزلة من يُكرّ أنه بشر، وهذا من فرط غلوهم في اعتقادهم الباطل أن الرسل لا يكونون إلا ملائكة، كما حكى القرآن عنهم في موضع آخر:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ [الؤمنون: 24].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/269.

(2) حسن طبل، علم اللغوي، ص: 178.

(3) أحمد شبيب، بحوث منهجية في علوم البلاغة، ص: 298.

(4) السامرائي، معاني النحو: 2/249 - 250.

(5) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 170.

أَوَّلُ مَنْ كَذَّبَ
نُوحًا ﷺ وَكَفَرَ
بِدَعْوَتِهِ وَأَذَاهُ
هُمْ الْأَقْرَبُونَ مِنْ
قَوْمِهِ

يَسْتَنْكَرُ
الْكَافِرُونَ أَنْ
يَكُونَ الرَّسُولُ
بَشَرًا، وَمَا كَانُوا
هُمْ مَلَائِكَةً

سِرُّ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِالرُّؤْيَةِ:

في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَنَّاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾ عبّر الملاء عن اعتراضهم بما يبدو لهم من ظاهر الأمر رأياً يرونه بأعينهم. ومرادهم: ما أنت إلا بشرٌ مثلنا، ليس فيك مزيةٌ تخصُّك من دوننا بما تدّعيه من النبوة، ولو كان كذلك لرأيناها، لا أنّ ذلك محتملٌ ولكن لا نراه⁽¹⁾، وفي التعبير بالرؤية إشارةٌ إلى سفه القوم إذ وقفوا عند ظواهر الأشياء ولم يتعمّقوا في حقائقها.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿تَرَنَّاكَ﴾:

في التعبير بالمضارع في قول الملاء: ﴿مَا تَرَنَّاكَ﴾ إفادةٌ لمعنى تجدد الرؤية، ومرادهم من ذلك أنهم كلّما رأوا نوحاً ﷺ رأوه على حالٍ لا تتغيّر، فكأنّهم أرادوا أن ينسبوا له صفةً ثابتةً لا تتغيّر مهما تغيّرت الرؤية زماناً أو مكاناً، فقالوا: ﴿مَا تَرَنَّاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾، فليست تتقلّب بين البشرية وغيرها، بل أنت بشرٌ مثلنا، وهذا يدلُّ أيضاً على تكرّر ورود المرئي - وهو نوحٌ ﷺ - عليهم في مجالسهم ممّا يفهم منه تكرّر الدّعوة والإنذار على ما حكاه القرآن الكريم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [نوح: 5].

دلالة المقصور عليه نكرة ﴿بَشَرًا﴾:

جاء المقصور عليه نكرة في قول الملاء: ﴿مَا تَرَنَّاكَ إِلَّا بَشَرًا﴾ للدلالة على أنهم أرادوا التّحقير والتّصغير، والتّجاهل والاستهزاء⁽²⁾، تقليلًا من شأن نوح ﷺ وتقليلًا من شأن أتباعه، واستبعادًا لفكرة أن يكون الرّسول من البشر.

سِرُّ إِيثَارِ التَّعْبِيرِ بِالْبَشَرِيَّةِ:

المراد بقولهم: ﴿بَشَرًا﴾: أي: آدمياً. والمعنى: أنهم قالوا له: ما

من ضيق
العطن الوقوف
عند الطّواهر،
وعدم التدبّر في
الحقائق البواهر

لا يكفّ الرّسل
عن دعوة
أقوامهم،
وغشيانهم
في مجالسهم
ونوادبهم

إثبات
استهزائهم
تقبيح لشأنهم

من عمي عن
جايّ حكمه ربّه
منع أن يكون
النّبّي بشراً
وجعل الإله
حجراً

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/200.

(2) السامرائي، معاني النحو: 1/41.

نراك إلا آدمياً مثلاً في الخلق. فأنكروا أن يُرسلَ الله ﷻ بشراً إلى الخلق⁽¹⁾؛ أي: لستَ بملكٍ، ولكنك بشرٌ، فكيف أوجي إليك من دوننا⁽²⁾.

دلالة وصف المقصور بـ ﴿مِثْلَنَا﴾:

المثل: السَّادُّ مسدّد غيره في الحسّ، بمعنى أنّه لو ظهرَ للمشاهدة لَسَدَّ مسدّد⁽³⁾. وقولهم: ﴿مِثْلَنَا﴾؛ أي: في مُطلق البشريّة، لستَ بملكٍ تصلحُ لما لا تصلحُ له من الرّسالة⁽⁴⁾؛ يعني: أنت مساوينا في البشريّة ولا فضلَ لك علينا، فكيف امتزت بأنك رسولُ الله⁽⁵⁾؟

سِرُّ الإضافة ﴿مِثْلَنَا﴾:

إضافة الصّفة إلى ضميرِ الجمع (نا) في قول الملائ: ﴿مِثْلَنَا﴾ أريدَ بها الاستهزاء والتّهكّم؛ كَمَنْ يَقُولُ لِمَنْ يَسْخَرُ مِنْهُ: هذا رئيسنا وزعيمنا، مع أنّه لا يصلحُ إلّا أن يكونَ تابعاً خادماً، وهكذا أرادوا، بل إنهم ادّعوا لأنفسهم الشّرفَ والفضلَ إذ جعلوه ﷻ منسوباً ومضافاً إليهم، فكأنّهم هم الأصلُ المعولُ عليه.

دلالة الواو في ﴿وَمَا تَرْكُ﴾:

الواو في قول الملائ: ﴿وَمَا تَرْكُ أَتَّبَعَكَ﴾ عاطفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب، وجملة: ﴿وَمَا تَرْكُ﴾ في محلِّ نصبٍ معطوفةٌ على جملة مقول القول⁽⁶⁾، ولأجل قصْدِ هذا التّشريك بين الجملتين في المحلِّ الإعرابي، ولكونِ الجملتين خبريّتين، ولتتمامِ المناسبة بينهما؛ أوثرَ أن يوصلَ بينهما بالواو، وقد دلَّ الوصلُ على شدّةِ مجادلةِ الملائ من قوم نوحٍ نوحاً ﷻ، وأنّهم أخذوا يُعدّدون الحجج - بزعمهم - ليُبطلوا بها نبوّته ﷻ.

تمادي المشركين
في السّخرية
والاستهزاء من
الرّسل

يدّعي المشركون
لأنفسهم
الشّرف، ولا
يُوقّرون إلّا أهل
الغنى والتّرف

حجّة المشركين
داحضة،
وأهواؤهم على
قلوبهم رابضة

(1) مكي، الهداية: 5/3375.

(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 6/87.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/271.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/269.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/140.

(6) محمود صافي، الجدول: 6/250.

الغرض من أسلوب القصص:

مبالغتهم في
تحقير نوح تأكيد
لاستحقاقهم
العذاب الشديد

الغرض من أسلوب القصص في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَزَلْكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْفَكُوا﴾ هو المبالغة في المعنى وقصد توكيده، وذلك عن طريق استخراج مُثَبِّتٍ واحدٍ من عموم ما نُفِيَ، فلَمَّا نَفَوْا الرُّؤْيَا عنه فَتَشَوَّفَ السَّامِعُ إِلَى مَا يَقَعُ عَلَيْهِ مِنَ المعاني، يَبْتَغُوا أَنَّ مرادهم رؤية مَنْ اتَّبَعَهُ فقالوا: ﴿أَتَّبَعَكَ﴾؛ أي: تَكَلَّفَ اتِّبَاعَكَ ﴿إِلَّا الَّذِينَ هُمْ﴾؛ أي: خَاصَّةً ﴿أَرَادُوا أَنْ يَنْفَكُوا﴾⁽¹⁾ وقد اخْتِيرَ النَّفْيُ والاستثناء في صياغة أسلوب القصص لما يفيدُه من التَّأْكِيدِ والعموم، ولما في (إِلَّا) من معنى الاختصاص⁽²⁾؛ إذ إِنَّهُمْ أَرَادُوا تخصيصَ اتِّبَاعِ دعوةِ نوحٍ ﷺ بالأراذل من قومه، ليكونَ هذا مطعناً يوجِّهونه إلى الدَّعوةِ المباركةِ بزعمهم، بالإضافة إلى أَنَّهُمْ نَزَلُوا نوحاً ﷺ مَنزَلةَ الْمُنْكَرِ لما يقولونه⁽³⁾؛ مبالغةً في التَّعْرِيزِ به، والإنكارِ عليه.

دلالة التعبير بالمضارع ﴿وَمَا تَزَلْكَ﴾:

حركات الدَّاعِيَةِ
مَرصُودَةٌ من
أَعْدَائِهِ، مَتَّبِعَةٌ
من أَوْلِيَائِهِ

يدلُّ التَّعْبِيرُ بالمضارع على تَجَدُّدِ الْحَدِيثِ وتكراره، والمقصودُ به هُنَا أَنَّ هؤلاء المَلَأَ الكافرين كُلِّمًا نَظَرُوا إِلَى مَنْ آمَنَ بنوحٍ ﷺ وَاتَّبَعَهُ فيما يَقُولُ رَأَوْا أَنَّهُمْ مِنَ السُّوقَةِ، وَالضُّعْفَاءِ، فَصَدَّهُمْ هَذَا عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ، وَكَأَنَّهُمْ - لَعْنَهُمُ اللَّهُ - أَرَادُوا أَنْ يَجْعَلُوا سُخْرِيَتَهُمْ مِنْهُ ﷺ محلَّ اعتذارٍ عن عدم اتِّبَاعِهِ، فقالوا: لو أَتَّبَعَكَ واحدٌ من أشرافنا وكبرائنا لَاتَّبَعْنَاكَ لَكِنَّ هَذَا لَمْ يَحْصُلْ!

دلالة بالماضي ﴿أَتَّبَعَكَ﴾:

مَنْ وَقَرَّ الْإِيمَانُ
فِي قَلْبِهِ أَطْمَأَنَّ
بِهِ، وَمَنْ قُضِيَ
عَلَيْهِ بِالشَّقَاءِ
فَلَنْ يَهْدِيَهُ هَادٍ

يفيدُ التَّعْبِيرُ بالماضي التَّحْقِيقَ والتَّأْكِيدَ، وذلك بأصلِ الوضع؛ إذ إِنَّهُ يدلُّ على أَنَّ الفِعْلَ قد وقعَ في الزَّمانِ الماضي وانتهى، وهذا مرادٌ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/270.

(2) السامرائي، معاني النحو: 2/249، وحسن طبل، علم اللعاني، ص: 178.

(3) حسن عبد الرزاق، البلاغة الصافية، ص: 175، وأحمد مطلوب، أساليب بلاغية، ص: 183.

هنا، وهو ما يفيدُ الفعلُ الماضي: ﴿اتَّبَعَكَ﴾؛ لأنَّ هؤلاء المَلَأَ أرادوا أن يَجْعَلُوا حِجَّتَهُمْ قُوَّةً لِيَدْحَضُوا بها نبوءة نوح ﷺ.

موقعُ جُمْلَةِ ﴿اتَّبَعَكَ﴾ ودلالته:

قولُ المَلَأَ ﴿مَا نَرٰكَ﴾ يجوزُ أن تكون هذه الرُّؤية قلبيةً، وأن تكون بصريَّةً، فعلى الأوَّل يكونُ قوله: ﴿اتَّبَعَكَ﴾ في محلِّ نصبٍ مفعولًا ثانيًا، وعلى الثاني في محلِّ نصبٍ على الحال⁽¹⁾، وعلى كلا التَّقديرين يدلُّ موقعُ الجملة على ما وقَرَّ في قلوب المَلَأ من اعتقادهم الباطلِ النَّاشئِ عن مجرَّد النَّظَرِ الظَّاهِرِيِّ لا المتأمِّلِ، ومن هنا يظهرُ أنَّهم وقَعُوا فيما جعلوه بزعمهم عيبًا في أتباعِ نبيِّ الله نوح ﷺ إذ قالوا: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾. فما أَظْلَمَهُمْ!

سِرُّ المقصورِ عليه بالاسمِ الموصولِ ﴿الَّذِينَ﴾:

عبرَ عن المؤمنين بنوح ﷺ بالموصولِ والصِّلَةِ لحكاية أنَّ في كلام الذين كفروا إيماءً إلى شهرة أتباعِ نوح ﷺ بين قومهم بوصفِ الرَّذَالَةِ والحقارةِ، وكان أتباعُ نوح ﷺ من ضعفاءِ القوم، ولكنَّهم من أذكِياءِ النفوسِ ممَّن سبقَ لهمُ الهدى⁽²⁾، وإنَّما لم يقولوا: (إلا أراذلنا)؛ مبالغةً في استرذالهم، لما في التَّعبيرِ بالموصولِ من التَّأكيدِ على ما تضمَّنَتْه جملةُ الصِّلَةِ من وُصِفِ أريد إلصاقه بالموصوفِ، وكأنَّهم إنَّما استرذَلُوهم لفقَرِهِمْ؛ لأنَّهم لما لم يعلموا إلا ظاهرًا من الحياة الدُّنيا كان الأشرفُ عندهم الأكثرُ منها حظًا، والأرذلُ من حُرْمِها، ولم يفقهوا أنَّ الدُّنيا بحذافيرِها لا تعدلُ عند الله تعالى جناحَ بُعوضةٍ، وأنَّ النَّعيمَ إنَّما هو نعيمُ الآخرة، والأشرفُ من فاز به والأرذلُ من حُرِمه⁽³⁾.

يقعُ الكافرُ
الدَّائمُ على
المؤمنِ فيما
عاب فيه عليه،
وهيهاتُ أن
يَسْتَوِيَا

لا يعلمُ
الكافرون إلا
ظاهرًا من الحياة
الدُّنيا، تُغريهم
الظُّواهرُ،
وتُغرِّهم للظَّاهِرِ

(1) السمين الحلبي، الدر المنثور: 6/309 - 310.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/48.

(3) الألوسي، روح المعاني: 6/237.

نُكْتَةُ اسْمِيَةِ جَمَلَةِ الصَّلَةِ ﴿هُمُ أَرَادُوا﴾:

بالمعاني يحصل
الامتياز لا بالمباني

في مجيء صلة الموصول جملةً اسميةً توكيدٌ لما تضمنته من صفةٍ أريدَ وصفُ الموصول بها، ومبالغةٌ في إلصاقها بالموصوف بها. وقد أفاد هذا المعنى ما في الجملة الاسمية من الدلالة على الثبوت والديمومة، وزاد من هذا التوكيد وقوع هذه الجملة صلةً لموصولٍ موصوفٍ به أتباعُ نوح ﷺ، وأن هذه الصفة ملازمةٌ لهم غيرُ مُنفكةٍ عنهم، فقد كانوا كذلك في الماضي، ولم يتغير حالهم بعد اتِّباعهم نوحًا ﷺ، وفي هذا تعريضُ بنوح ﷺ، وكأنَّهم قالوا له: لم ينفع أتباعك اتِّباعهم إياك، فلم تتغير حالهم!

الغرض من القصر في ﴿هُمُ أَرَادُوا﴾:

الكفار يريدون
تأكيد إلصاق
صفة الرذالة
بالمؤمنين

في قول الملاء: ﴿هُمُ أَرَادُوا﴾ حصرٌ مُستفادٌ من تعريفٍ طرفي الإسنادِ أفادَ تخصيصَ صفةِ الرذالة بالأتباع المؤمنين كما رامهم بها الملاء الكافرون لعنهم الله، وقد دلَّ على المبالغة في الإخبار، وكأنَّه مُؤدِّن بتأكيدِ حصرِ مَنْ اتَّبعه، وأنَّهم همُّ الأراذلُ لم يشرِكهم شريفٌ في ذلك⁽¹⁾.

دلالة مجيء الجمع ﴿أَرَادُوا﴾:

سبيل الذم
لا يسلكها إلا
من عجز عن
الججاج، فيستز
ضعفه بالججاج

الأراذلُ فيه وجهان، أحدهما: أنه جمعُ الجمع، والثاني: أنه جمعٌ فقط. والقائلون بالأوَّل اختلَفوا فقليل: جمعٌ لـ (أَرَذَلَ)، وأَرَذَلَ جمعٌ لـ (رَذَلَ)؛ نحو: كَلَبٌ وأَكْلَبٌ وأَكَالِب. وقيل: بل جمعٌ لـ (أَرَذَالَ)، وأَرَذَالَ جمعٌ لـ (رَذَلَ) أيضًا. والقائلون بأنَّه ليس جمعٌ جمعٍ، بل جمعٌ فقط قالوا: هو جمعٌ لـ (أَرَذَلَ)، وإنَّما جاز أن يكونَ جمعًا لـ (أَرَذَلَ)؛ لجريانه مجرى الأسماء من حيث إنه هُجِرَ موصوفه كالأبطلح والأبرق.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/140.

وقال بعضهم: هو جمعُ (أَرْدَل) الذي للتَّفضيل، وجاء جمعاً كما جاء ﴿أَكْبَرُ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنعام: 123] و«أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقاً»⁽¹⁾. وهذا هو الظَّاهرُ أنَّه جمعُ (أَرْدَل) التي هي أَفْعُلُ التَّفضيل⁽²⁾؛ أى: وما نراك اتَّبِعَكَ يا نُوحُ إلا الذين هم أَفْلُنَا شَأْنًا، وَأَحْقَرُنَا حَالًا، وَأَهْوَنُنَا أَمْرًا من غير أن يَتَّبِعْتُوا من حقيقة أَمرك، ولو تَتَّبِعْتُوا وَتَفَكَّرُوا ما اتَّبَعُوكَ⁽³⁾. وهذه مبالغةٌ منهم في تحقيرِ شَأْنِ أَتْبَاعِ نَبِيِّ اللَّهِ نوحٍ ﷺ لتكون ذريعةً لتحقيرِ الدَّعوةِ والدَّاعي؛ ولذلك عَظُمَ انتقامُ اللَّهِ تعالى منهم.

سِرُّ الْعُدُولِ فِي ﴿أَرَادِلُنَا﴾:

قولُ المَلَأَ: ﴿أَرَادِلُنَا﴾؛ أى: أَحَسَّأُونَا وَأَدَانِينَا، وهو جمعُ (أَرْدَل)، والأغلبُ الأَقْيَسُ في مثله إذا أريدَ جمعه أن يُجْمَعَ جمعُ سلامةٍ؛ كـ ﴿الْأَخْسَرُونَ﴾، جمع: (أَخْسَر)، وهو ما جاء في سورة الشعراء ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ [الشعراء: 111] لَكِنَّهُ كُسِرَ هُنَا؛ لِأَنَّهُ صَارَ بِالْغَلْبَةِ جَارِيًا مَجْرَى الْاسْمِ؛ وَلِذَا جُعِلَ الرَّذَلُ وَالْأَرْدَلُ بِمَعْنَى، وهو الخسيسُ الدَّنِيءُ، ومعنى جريانه مَجْرَى الْاسْمِ أَنَّهُ لَا يَكَادُ يُذَكَّرُ الْمُوصُوفُ مَعَهُ كَالْأَبْطَحِ وَالْأَبْرَقِ⁽⁴⁾ فَكَانَتْهُمْ مِنْ فَرْطِ مُبَالَغَتِهِمْ فِي وَصْفِ أَتْبَاعِ نوحٍ ﷺ بِالرَّذَالَةِ جَعَلُوهَا عِلْمًا عَلَيْهِمْ لَا مَجْرَدَ وَصْفٍ فَحَسِبُوا.

سِرُّ الْإِضَافَةِ فِي ﴿أَرَادِلُنَا﴾:

(أَرَادِل) جمعُ (أَرْدَل) التي هي للتَّفضيل، والأصلُ فيه أن يقال: هو أَرْدَلُ من كذا، ثم كَثُرَ حَتَّى قَالُوا: هو الأَرْدَلُ، فصارت الألفُ وَاللَّامُ عِوَضًا عَنِ الْإِضَافَةِ⁽⁵⁾، وَلَمَّا أَضِيفَ إِلَى الضَّمِيرِ حُذِفَتِ الْأَلْفُ

بَالِغَ الْكِفَارِ فِي
ذَمِّ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى
جَعَلُوا فَقْرَهُمْ
عِلْمًا عَلَيْهِمْ لَا
مَجْرَدَ وَصْفٍ
زَائِلٍ

عَظُمَتْ نَفْسُ
الْكَافِرِ لِدَبِّهِ فَأَبَى
أَنْ يُخَضِّعَهَا إِلَّا
لِهَوَاهُ، فَأَضْلَلَهُ
وَأَذَلَّهُ وَأَوْدَاهُ

(1) السمين الحلبي، الدر المنثور: 6/310.

(2) الرمخشري، الكشاف: 2/388، وأبو حيان، البحر المحیط: 6/140.

(3) طنطاوي، الوسيط: 7/191.

(4) الألوسي، روح المعاني: 6/237.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/337.

واللَّامُ. وقد اختير له أن يُضاف إلى ضمير جماعة المتكلمين لتعيين القبيلة؛ أي: أرادلُ قومنا⁽¹⁾، وفي هذا ما فيه من الكبر والصِّلف، حيث جعلوا أنفسهم الأعلين، ثم عبَّروا عن أتباع نوح عليه السلام بأنهم أرادلُ، ثم أضافوهم إلى الضمير العائد إليهم، فكانهم قالوا: هم خدمنا وحُضراؤنا.

دلالة وصف المقصور عليه بـ ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾:

دلَّ وصفُ المقصورِ عليه، وهو الاسمُ الموصولُ، بـ ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾⁽²⁾ على المبالغة في تسفيه الدعوة والدَّاعي عن طريق تسفيه مَنْ آمن بها وأتبعها؛ فإنَّ المعنى: أفتكون مع هؤلاء في صفٍّ واحدٍ؟! على أنَّ إقبال هؤلاء عليك وأتباعهم لك في بادئ الأمر وظاهره بدون تأملٍ ولا تفكيرٍ ولا نظرٍ في عواقب الأمور وبواطنها، ولو أنهم أعملوا فكرهم ما أتبعوك! وكلُّ هذا يدعوننا نحن إلى مخالفتك وعدم اتِّباعك⁽³⁾.

سرُّ إضافة ﴿بَادِيَ﴾ إلى ﴿الرَّأْيِ﴾:

إضافة ﴿بَادِيَ﴾ إلى ﴿الرَّأْيِ﴾ من إضافة الصِّفة إلى الموصوف، ومعنى كلامهم: لا يلبث أن يرجع إلى متَّبِعِك رُشدُهم فيعيدوا التَّأمُّلَ في وقتٍ آخر ويكشف لهم خطوهم⁽⁴⁾، ومراد الكافرين تحقيق رأيهم في تسفيه المؤمنين بإضافة رأيهم إلى ما يبدو لهم، دون تدبُّر العواقب.

تنوُّع القراءات القرآنية في ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾:

قولُ الملائ: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ اختلف القُرَّاء في قراءته، فقرأه عامةُ قُرَّاء المدينة والعراق: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بغير همز ﴿بَادِي﴾، بمعنى: ظاهرُ الرَّأي، من قولهم: بدا الشيءُ يبدو، إذا ظهرَ، معناه: أتبعوك

من فرط إعجاب
الكافر بنفسه
يذهب فيسفه
عقل من لم
يقدر كفره

إيمان المؤمن
صادر عن
قناعة، ورأي
الكافر صادر عن
هوى

رأي السفهاء
ابتدأه من
هواهم وما يبدو
لهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/48.

(2) وهو وصف معنوي لا نحوي، إذ إنَّ ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ منصوب على الظرفية، يُنظر: العكبري، التبيان:

2/695.

(3) محمود حجازي، التفسير الواضح: 2/117.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.

ظاهراً من غير أن يتدبروا ويتفكروا باطناً⁽¹⁾، وقرأ بعض أهل البصرة: ﴿بَادِئٌ﴾، مهموزاً، بمعنى: مبتدأ الرأي، من قولهم: بدأت بهذا الأمر، إذا ابتدأت به قبل غيره⁽²⁾. وقرأ آخرون بغير همز، أي: ظاهر الرأي من قولهم: بدا الشيء: إذا ظهر.

الموقع النحوي والبياني لجملة: ﴿بَادِئُ الرَّأْيِ﴾:

قول الملائ: ﴿بَادِئُ الرَّأْيِ﴾ منصوبٌ على الظرفية لـ ﴿اتَّبَعَكَ﴾ أو على النيابة عن الظرف على معنى: اتبعوك في ظاهر رأيهم أو أوله؛ أي: في وقت الرأي دون بحثٍ عن خفيه، أو في الرأي الأول دون إعادة نظر، فحذف ذلك، وأقيم المضاف إليه مقامه. أرادوا: أن اتباعهم لك إنما هو شيء عن لهم بديهة من غير رؤية ونظر، ولم يتأملوا ولم يتتبعوا، ولو فعلوا ذلك لم يتبعوك، وغرضهم من هذا: المبالغة في عدم اعتبار ذلك الاتباع. وقيل: المعنى: إنهم اتبعوك في أول رأيهم أو ظاهره، وليسوا معك في الباطن. وقيل: هو ظرف لـ ﴿تَرَكْ﴾؛ أي: ما نراك في أول رأينا أو فيما يظهر منه⁽³⁾.

ويجوز أن يتعلق ﴿بَادِئُ الرَّأْيِ﴾ بقوله: ﴿أَرَادِلْنَا﴾ أي: كونهم كذلك أمر ظاهر لكل من يراهم عياناً؛ لأن رد التهم مكشوفة لا تحتاج إلى تأمل. ويتأكد هذا التأويل بما نقل عن مجاهد أنه قرأ (إلا الذين هم أرادلنا بادي رأي العين) وإنما استردلوا المؤمنين لاعتقادهم أن المزية عند الله سبحانه بالمال والجاه ولم يعلموا أن ذلك مبعّد من الحق لا مقرب منه، وأن الأنبياء ما بعثوا إلا لترك الدنيا والإقبال على الآخرة فكيف يجعل قلة المال طعناً في النبوة وفي متابعة النبي ﷺ؟!⁽⁴⁾

زعم الكفار أن
المزية عند الله
بالمال والجاه،
فطمعوا أن
يؤثوا مثلما أوتي
رسل الله

(1) البغوي، معالم التنزيل: 4/171، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/368.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 12/380.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/388، والآلوسي، روح المعاني: 6/238، وابن عاشور، التحرير والتنوير:

12/49.

(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/18.

إذا تمكَّن الكفرُ
من القلوبِ
غَلَفَهَا بِبَطْرِ
الحَقِّ وَغَمَطِ
النَّاسِ

الغرض من الكناية في ﴿وَمَا تَزَلْكَ أَتَّبَعَكَ﴾:

في قول الملائكة الذين كفروا من قوم نوح **﴿وَمَا تَزَلْكَ أَتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾** كناية عن صفة عدم الرُّشد، حيث إنَّ الملائكة الكافرين قد اتَّهموا المؤمنين من قوم نوح **﴿بِالسَّفْهِ وَعَدِمِ الرَّشْدِ﴾**، ولكنَّهم لم يُصرِّحوا بذلك، بل عمَدوا إلى الكناية **﴿بِادِّىَ الرَّأْيِ﴾**؛ لما في الكناية من إثبات المعنى والمبالغة فيه عن طريق تجسيمه والإتيان بالدليل عليه⁽¹⁾. وهذا يضاف إلى حشد المؤكِّدات في الآية الكريمة، من التعبير بأسلوب القصَرِ مرَّتين نفيًا واستثناءً، ومرَّةً بتعريف الجزأين، إلى جانب إثارة الجملة الاسميَّة تارةً، والفعليَّة ذات الفعل الماضي تارةً، والتَّعبيرُ بالاسم الموصول الذي يفيد تأكيد اتصال الصِّفة بما جاء في صلته، وغير ذلك من المؤكِّدات، وفيه دليل على تمكُّن الكفر من قلوبهم، وأنَّه صار لهم بمنزلة العقيدة الرَّاسخة.

دلالة الواو في ﴿وَمَا تَرَى﴾:

الواو في قول الملائكة: **﴿وَمَا تَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾** هي العاطفة، حيث عطفَت جملة **﴿وَمَا تَرَى﴾** على جملة مَقول القول، فهي في محلِّ نصبٍ على العطف⁽²⁾، وقد أُوثِرَ الوصلُ هنا لأغراض، منها: اتِّفاقَ الجملتين في الخبريَّة، واتِّفاقَهُما لفظًا ومعنى، وتناسُبُهُما في الفعليَّة والمضارعة، وعدمُ وجودٍ ما يوجبُ الفصلَ بينهما، فمن ثَمَّ حُسُنَ الوصلِ بينهما، وهذا هو المعروفُ بـ (التَّوسُّطِ بين الكمالين) كما يُسمِّيهِ البلاغيُّون⁽³⁾. وقد أفاد هذا العطفُ تعديدَ مقالاتِ الملائكة الكافرين التي حاجَّجوا بها نوحًا **﴿وَالَّتِي دَلَّتْ عَلَى كِبَرٍ فِي نَفْسِهِمْ، وَحَقْدٍ فِي صُدُورِهِمْ، وَسَفْهِ فِي عَقُولِهِمْ، وَدَلَّتْ كَذَلِكَ عَلَى شِدَّةٍ مَا كَابَدَهُ نُوحٌ﴾** معهم.

جنى عقلَ الكافر
عليه، وصوَّرَ له
الحَقَّ باطِّادًا،
وبالباطل حَقًّا

(1) أحمد شعيب، بحوث منهجية في البلاغة، ص: 212.

(2) محمود صافي، الجدول: 6/250.

(3) القزويني، الإيضاح: 3/127.

نُكْتَةُ تَكَرَّارِ الْفِعْلِ (نَرَى) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ:

هؤلاء الكفرة من قوم نوح ﷺ لما قَصُرُوا عن إدراك أسباب الكمال وتطلَّبوا الأسباب من غير مكانها نظروا نوحًا ﷺ وأتباعه فلم يروه من جنسٍ غيرِ البشر، وتأمَّلوه وأتباعه فلم يروا في أجسامهم ما يُمَيِّزُهُم من النَّاسِ وربَّما كان في عمومِ الأُمَّةِ مَنْ هُمْ أَجْمَلُ وجوهًا، أو أطولُ أجسامًا، من أجل ذلك أخطؤوا الاستدلالَ فقالوا: ﴿مَا نَرٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾، فأسندوا الاستدلالَ إلى الرؤيةِ، والرؤيةُ هنا رؤيةُ العين لأنَّهم جعلوا استدلالَهُم ضروريًّا مَنْ المحسوس من أحوالِ الأجسام؛ أي: ما نراك غيرَ إنسان، وهو مماثلٌ للنَّاسِ لا يزيْدُ عليهم جوارحٌ أو قوائمٌ زائدة⁽¹⁾، وهذا دليلٌ على أنَّهم إنَّما اعتمدوا في حُجَّتِهِمْ على الظواهرِ دونَ سبْرِ أغوارِ الحقائقِ البواهرِ، فوقعوا فيما عابوا فيه المؤمنين بأنَّهم لم يَعْمَلُوا عقولَهُم ولم يَدَّبَرُوا الأمرَ.

الغرض من تقديم ﴿لَكُمْ﴾:

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على عاملِهِ تخصيصُ للمتقدِّم بالحكم أفادَ قَصَرَ الحكمِ عليه، وهذا هو سرُّ التَّقديمِ هنا؛ فإنَّ هؤلاء الكافرين أرادوا أن يجعلوا عدمَ اتِّباعِهِمْ نوحًا ﷺ وعدمَ الإيمانِ به كما آمن به الضُّعفاءُ منهم؛ أرادوا أن يجعلوا ذلك أمرًا منطقيًّا بناءً على مقدِّمةٍ ادَّعَوْا صَحَّتْهَا، فقالوا: لستَ يا نوحُ بملكٍ، ولكنَّكَ بشرٌ، فكيف أُوحيَ إليك من دوننا؟ ثمَّ ما نراك أتبعك إِلَّا أرادنا كالبيعةِ والحاكةِ وأشباهِهِمْ، ولم يتَّبِعْكَ الأشرافُ ولا الرُّؤساءُ مِنَّا، ثمَّ إنَّ هؤلاء الذين أتبعوك لم يكن اتِّباعُهُمْ إِيَّاكَ عن تروٍّ منهم ولا فكرةٍ ولا نظرٍ، بل بمجرد ما دعوتَهُم أجابوك فاتَّبِعوك، ثمَّ ما نرى لكم أنتم خصوصًا يا مَنْ تريدون مِنَّا نحن الأشرافُ

أَصَمَّ الْكَفَرُ آذَانَ
الْكَافِرِينَ وَأَعَمَّى
أَبْصَارَهُمْ، فَمَا
عَادُوا يَرَوْنَ حَقًّا
وَلَا يَبْنِيَّةً

لَا يَقَرُّ الْكَافِرُونَ
اتِّبَاعَ مَنْ لَمْ
يُؤْتَ مُلْكًا وَلَا
مَالًا وَإِنْ كَانَ نَبِيًّا
يُوحَى إِلَيْهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/47.

أَنْ تَتَّبِعَكُمْ فِي دَعْوَتِكُمْ أَيَّ تَقْدُمُ يُؤْهِلَكُمْ لِلنُّبُوءَةِ وَاسْتِحْقَاقِ الْمَتَابَعَةِ،
فَكَيْفَ تَطْلُبُونَ بَعْدَ هَذَا كُلَّهُ أَنْ تَتَّبِعَكُمْ⁽¹⁾؟

دَلَالَةُ حَرْفِ الْجَزْرِ فِي ﴿عَلَيْنَا﴾ وَمَعْنَاهُ:

يدلُّ الحرفُ (على) على معنى الاستعلاءِ والفوقيةِ، سواءً أكان استعلاءً حقيقياً أم مجازياً، وهذا هو أصلُ معانيه⁽²⁾، وقد أشار استخدامه هنا إلى ما انطوت عليه نفوسُ هؤلاء الملأِ الكافرين من الكِبَرِ والغُرُورِ، وأنَّهم ما عادوا يَرونَ النَّاسَ إِلَّا على منزلتين: منزلةِ السَّادَةِ الأَعْلَى، ومنزلةِ العبيدِ الأَدْنَى؛ فذلك واجهوا نوحاً ﷺ والذين آمنوا معه بهذا الخطاب.

دَلَالَةُ ﴿مِنْ﴾ وَمَعْنَاهَا فِي ﴿مِنْ فَضْلٍ﴾:

جاء بحرفِ الجرِّ ﴿مِنْ﴾ في قولِ الملأِ: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ لإفادةِ الاستغراقِ؛ أي: استغراقُ النَّفْيِ ليعمَّ كلَّ أَجْزَائِهِ، فيحصلُ به التَّأَكُّيدُ فقد أَعْرَقُوا فِي النَّفْيِ بقولهم: ﴿مِنْ فَضْلٍ﴾⁽³⁾؛ أي: وما نرى لك ولمن اتَّبَعك علينا أدنى فَضْلٍ تمتازون به في جماعتِكُمْ، كالقُوَّةِ والكثرةِ والعلمِ⁽⁴⁾، يَعْنُونَ أَنَّ اتِّبَاعَهُمْ لك لا يدلُّ على نُبُوَّتِكَ ولا يُجْديهم فَضِيلَةً تَسْتَبِيعُ اتِّبَاعَنَا لَكُمْ، واقتصارُهم ههنا على ذكرِ عدمِ رُؤْيَةِ الفضلِ - بعدِ تصرِيحِهِمْ بِرذالَتِهِمْ فيما سبق - باعتبارِ حالِهِمْ السَّابِقِ وَاللَّاحِقِ، ومرادُهُمْ أَنَّهُمْ كانوا أَرَادَلْ قَبْلَ اتِّبَاعِهِمْ لك، ولا نرى فيهم وفيك بعدِ الاتِّبَاعِ فَضِيلَةً علينا⁽⁵⁾.

دَلَالَةُ تَنْكِيرِ ﴿فَضْلٍ﴾:

جاء الفضلُ نكرةً لإفادةِ التَّخْلِيلِ مع العمومِ المُسْتَفَادِ مِنْ استغراقِ

انطوت نفوسُ
الكافرين على
الكِبَرِ والغُرُورِ

تأبى نفسُ
الجاحد أن
يجمعه بالفقير
دينٌ يساوي
بينهما

عَبَادُ الدُّنْيَا
لا يُفَاضِلُونَ
بَيْنَ أَهْلِهَا إِلَّا
بِمُقَاسِ الْمَالِ

(1) مأمون حموش، التفسير للمأمون: 4/36.

(2) اللالقي، رصف اللباني، ص: 433، والسمراي، معاني النحو: 3/47.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/270.

(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/53.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201.

النَّفِي ب (مِنْ)؛ أي: لانرى لكم علينا أي فضلٍ وإن قلَّ، بل لا نرى لكم علينا فضلاً أصلاً.

معنى ﴿بَلْ﴾ ودلائلها في ﴿بَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾:

﴿بَلْ﴾ في قول الملائ: ﴿بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَذِبِينَ﴾ حرفٌ إضرابٍ، ويدلُّ هنا على الإضرابِ الانتقالي، حيث انتقل الكلام من غرضِ التعريضِ إلى غرضِ التَّكْذِيبِ، مع عدم إرادة إبطالِ الكلامِ الأوَّلِ⁽¹⁾، وقيل: هو إضرابٌ إبطالٍ، وجملته ﴿بَلْ نُنَبِّئُكُمْ كَذِبِينَ﴾ إبطالٌ للمنفيِّ كَلِّهِ الدَّالُّ على صدِّقه في دعواه بإثباتِ ضدِّ المنفيِّ، وهو ظَنُّهُمْ إِيَّاهُمْ كاذِبِينَ؛ لأنَّه إذا بطلَ الشَّيْءُ ثبتَ ضِدُّهُ، فزعموا نوحًا ﷺ كاذبًا في دعوى الرِّسالةِ، وأتباعه كاذبين في دعوى حصولِ اليقينِ بصدِّقِ نوح ﷺ، بل ذلك منهم اعتقادٌ باطلٌ، وهذا الظَّنُّ الذي زعموه مُستندٌ إلى الدَّلِيلِ المحسوسِ في اعتقادِهِمْ⁽²⁾.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بِالْمُضَارِعِ ﴿نُنَبِّئُكُمْ﴾:

التَّعْبِيرُ بِالْمُضَارِعِ يفيِدُ التَّجَدُّدَ وتكرارَ الحدوثِ؛ ولهذا عبَّرَ الملائُ الكافرونَ بِالْمُضَارِعِ ﴿نُنَبِّئُكُمْ﴾ ليفيِدَ تجدُّدَ هذا الظَّنِّ منهم، وقد دلَّ على أنَّ نوحًا ﷺ وأتباعه قد تكرَّرتْ منهم الدَّعْوَةُ وتجدَّدتْ لهؤلاء الكافرين ليتركوا كُفْرَهُمْ، وكلِّما تجددتْ هذه الدَّعْوَةُ تجددتْ من الكافرين اتِّهامُ النَّبِيِّ وأتباعه بالكذب، وهذا ما حكاه القرآنُ على لسانِ نوح ﷺ: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۖ﴾ [نوح: 6].

المقصودُ بِالظَّنِّ ودلائله في ﴿نُنَبِّئُكُمْ﴾:

استعمل الظَّنُّ هنا في العلمِ كقوله: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مَلَائِكَةُ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: 46] وهو إطلاقٌ شائعٌ في الكلامِ⁽³⁾. وإنَّما لم يَبْتَوِ القولُ

لا يجدد الكافرون
حُجَّةً يردُّون بها
الحقَّ إلَّا اتِّهامَ
دُعائِهِ بالتَّكْذِيبِ

لا تملأ البراهين
المتكبر إلَّا عنادًا،
ولا تزيده عن
الحقَّ إلَّا ابتعادًا

لا يتبع الكافرون
إلَّا ظنًّا وما هم
بمُستيقنين،
ويتهمون
المؤمنين
متكبرين

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/257.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.

بذلك مع جزمهم به وإصرارهم عليه إراءةً بأن ذلك لم يصدّر عنهم جُزأفاً، بل بعد التأمّل في الأمر والتدبّر فيه، ولذلك اقتصروا على ذلك الظنّ⁽¹⁾ واقتصروا على الظنّ كذلك احترازاً منهم عن نسبتهم إلى المجازفة كما أنّهم عبّروا بما عبّروا أولاً لذلك مع التعريض من أوّل الأمر برأي المتّبعين، ومُجاراةً معه ﷺ بطريق الآراء على نهج الإنصاف⁽²⁾، ثمّ كرّموا أنفسهم بعدم الجزم بالكذب فعبّروا عنه بالظنّ⁽³⁾.

الغرض من التعبير في ﴿لَكُمْ﴾ و﴿نَظَنُّكُمْ﴾:

في تغليب الحاضرين على الغائبين في قول الملائكة: ﴿لَكُمْ﴾، و﴿نَظَنُّكُمْ﴾ دلالة على أنّ هؤلاء المتكلّم عنهم كانوا حاضرين ساعة قال الملائكة ما قالوا، وهو يشير إلى دلالة لطيفة، وهي أنّ أتباع نوح ﷺ لم يتركوه، بل لازّموه في سيره وقعوده، وشاركوه في الدّعوة؛ ولذلك قال له الملائكة: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ﴾ دون أن يقولوا مثلاً: (آمن بك)، وهذا يدلّ على صدق إيمان الأتباع، وشدة كفر الكبراء وتمكّن الكبر من نفوسهم؛ إذ إنّهم لم يتورّعوا أنّ يسبّوهم في حضورهم.

سرّ الانتقال من المفرد إلى الجمع:

يُلاحظ المتأمّل في محاوراة الملائكة الكافرين نوحاً ﷺ أنّهم خاطبوه في الوجهين الأوّلين منفرداً، وفي هذا الوجه خاطبوه مع مُتّبعيه⁽⁴⁾، فقالوا: ﴿بَلْ نَظَنُّكُمْ كَذِبِينَ﴾، والمراد منه تكذيب نوح ﷺ في دعوى الرّسالة⁽⁵⁾؛ وذلك أنّهم إنّما كذّبوا نوحاً دون أتباعه، لأنّ أتباعه لم يكونوا رُسلًا، وأخرج الخطاب وهو واحدٌ مخرج خطاب الجميع،

أتباع الأنبياء
أنصار لهم
وأعوان، وهذا
من أثر بشاشة
الإيمان

ما أقبح الكبر!
يُطغي النفس،
ويُقعّد عن
الفضل، ويُلقي
في الرّذيل

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/200.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/201، والآلوسي، روح المعاني: 6/238.

(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 12/53.

(4) القنوجي، فتح البيان: 6/167.

(5) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/337.

كما قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ﴾ [الطلاق: 1]. وتأويل الكلام: بل نظنُّك يا نوحٌ كاذباً في دعواك أنَّ الله ابتعثك إلينا رسولاً⁽¹⁾. وقيل: بل الخطابُ لأتباعه ﷺ فقط فيكون التفاتاً؛ أي: ما نرى لكم علينا شرفاً في تلك التبعية لنوافقكم فيها. ﴿بَلْ نُنَظِّنُكُمْ كَذِبِينَ﴾ جميعاً لكونِ كلامكم واحداً ودعوتكم واحدة⁽²⁾؛ يعني: تواطأتم على الدعوة والإجابة تسبيحاً للرئاسة⁽³⁾. والحاصل أنهم لما وصفوا كل فريق من التابع والمتبوع بما ينفي سيادة المتبوع وتركية التابع جمَعوا الوصفَ الشَّامِلَ لهما، وهو المقصودُ من الوصفين المفرَّقين، وذلك قولهم: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ فنَفَوْا أن يكونَ لنوحٍ ﷺ وأتباعه فضلٌ على الذين لم يؤمنوا به حتى يكونَ نوحٌ ﷺ سيِّداً لهم ويكونَ أتباعه مُفضَّلين بسيادة متبوعهم⁽⁴⁾.

الغرض من أسلوب التعريض في ﴿مَا نَرَى لَكُمْ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَى لَكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَى لَكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادْيِ الرَّأْيِ﴾ تعريضُ بنوحٍ ﷺ وبمن آمن معه، وغرضهم هنا منه التعريضُ بأنهم أحقُّ منه بالنبوة، وأنَّ الله لو أراد أن يجعلها في أحدٍ لجعلها فيهم، وقد زعم هؤلاء أن يحجُّوا نوحاً ﷺ من وجهين: أحدهما: أنَّ المتبعين أراذل، ليسوا قدوة ولا أسوة. والثاني: أنهم مع ذلك لم يتروؤا في اتِّباعه ﷺ ولا أمعنوا الفكرة في صحَّة ما جاء به، وإنَّما بادروا إلى ذلك ارتجالاً ومن غير فكرٍ ولا رويَّة⁽⁵⁾، فنَفَوْا عنه سببَ السَّيادة من جهتي ذاته وأتباعه، وذلك تعريضُ بأنهم لا يتبعونه لأنهم يترفعون

يحسدُّ الكافرون
الرُّسُلَ على ما
آتاهم الله من
فضله، والله
يؤتي مُلكه مَنْ
يشاء

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/381.

(2) الألوسي، روح المعاني: 6/238.

(3) النسفي، مدارك التأويل: 2/54.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/49.

(5) درويش، إعراب القرآن: 4/340.

عن مخالطة أمثالهم، وأنه لو أبعدهم عنه لاتبعوه؛ ولذلك ورد بعده قوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (هود: 29) الآية (1).

دلالة التعبير باسم الفاعل ﴿كَذِبِينَ﴾:

عبّر الملاء عن اتّهامهم نوحًا ﷺ وأتباعه بالكذب باسم الفاعل: ﴿كَذِبِينَ﴾ للدلالة على ثبوت الصّفة وتمكّنها من الموصوف؛ أي: لكم هذا الوصف لازماً دائماً لأنكم لم تتّصفوا بما جعلناه مظنة الاتّباع ممّا يوجبُ العظمة في القلوب والانتقياد للنّفوس بالتّقدّم في الدّنيا بالمال والجاه؛ فكان داؤهم بطر الحقّ وغمط النّاس، وهو احتقارهم (2).

❁ الفرق المُعْجِية:

الظّنّ والحِساب:

الحِسابُ أنّ يحكم الإنسان لأحدِ النّقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله، ويكونُ بعرض أن يعتريه فيه شكٌّ، ويُقاربُ ذلك الظّنّ، لكنّ الظّنّ أن يخطر النّقيضان بباله فيغلبُ أحدهما على الآخر (3). والظّنّ ضربٌ من الاعتقاد وقد يكونُ الحِسابُ ليس باعتقاد؛ فيقال: أحسبُ أنّ زيداً قد مات ولا يجوزُ أن تعتقد أنّه مات مع علمك بأنّه حيٌّ.

وأصلُ الحِسابان من الحساب، يقال: أحسبُه بالظّنّ قد مات كما يقال: أعدّه قد مات ثم كثر حتّى سُمّي الظّنّ حِساباً على جهة التّوسّع وصارَ كالحقيقة بعد كثرة الاستعمال، وفُرّق بين الفعلِ منهما والمصدرِ؛ فيقال في الظّنّ: حَسِبَ حِساباً، وفي الحساب: حَسَبَ حُساباً (4).

إذا تمكّنت من
أرض التّكذيبِ
الأقدامُ، كَلَّتْ
عن الاستبصارِ
الأفهامُ

الظّنُّ بخطورِ
النّقيضين،
والحِسابُ
بخطورِ واحدٍ
منهما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/48، والإيباري، الوسوعة القرآنية: 10/91.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/271.

(3) الرّاغب، المفردات: (حسب).

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 99، وابن فارس، المقاييس: (حسب).

وَالظَّنُّ: هو رجحانُ كَفَّةِ الإِثْبَاتِ عَلَى كَفَّةِ النَّفْيِ. والحِسابان: هو الظَّنُّ القَائِمُ عَلَى حِسَابِ حَسَنٍ وَقَلْبِيٍّ، أَوْ الِاعْتِقَادِ القَائِمُ عَلَى النَّظَرِ وَالتَّجَرُّبَةِ، بِخِلَافِ الظَّنِّ الَّذِي يَدْخُلُ الذَّهْنُ وَيُلَاسُّهُ لِأَدْنَى سَبَبٍ، وَقَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42]، هُنَا أُوتِرَ لَفْظُ الظَّنِّ عَلَى الْحِسَابِ؛ لِأَنَّهُ ظَنٌّ بِنَاهٍ عَلَى رُؤْيَا وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ عَمَلٌ حِسَابِيٌّ⁽¹⁾.

البشر والإنسان:

أَصْلُ الْإِنْسِ وَالْإِنْسَانِ: مِنَ الْإِنْسِ وَهُوَ الْإِبْصَارُ، يُقَالُ: أَنْسَتْهُ وَأَنْسَتْهُ: أَيُّ أَبْصَرْتُهُ، وَيُقَالُ: أَنْسْتُ الشَّيْءَ: إِذَا رَأَيْتُهُ⁽²⁾. وَقِيلَ: سُمِّيَ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ يَأْنُسُ بِكُلِّ مَا يَأْلُفُهُ، وَمَعْنَاهُ الْمُحَوَّرِيُّ: الْإِنْسُ وَالْأَلْفَةُ⁽³⁾، وَسُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا لِأَنَّهُ يَنْسَى مَا عَلِمَهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْإِنْسَانُ إِنْسَانًا لِأَنَّهُ عَاهَدَ إِلَيْهِ فَتَسِي⁽⁴⁾.

الإنسان فيه
معنى الأنس
والألفة وهذان
ليس في أصل
البشر

وَالْبَاءُ وَالشَّيْنُ وَالرَّاءُ أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ ظَهْوُ الشَّيْءِ مَعَ حَسَنِ وَجَمَالٍ⁽⁵⁾. وَعُبِّرَ عَنِ الْإِنْسَانِ بِالْبَشْرِ اعْتِبَارًا بِظَهْوِ جِلْدِهِ مِنَ الشَّعْرِ، بِخِلَافِ الْحَيَوَانَاتِ الَّتِي عَلَيْهَا الصُّوفُ أَوْ الشَّعْرُ أَوْ الْوَبَرُ، وَذَلِكَ بِأَنَّ الْبَشْرَةَ ظَاهِرُ الْجِلْدِ⁽⁶⁾، أَوْ سُمِّيَ الْبَشَرُ بِذَلِكَ لِظَهْوِهِمْ⁽⁷⁾، أَوْ لِأَنَّ لَفْظَ (البشر) مُشْتَقٌّ مِنَ الْبَشَارَةِ، وَهِيَ حُسْنُ الْهَيْئَةِ، يُقَالُ: رَجُلٌ بَشِيرٌ وَامْرَأَةٌ بَشِيرَةٌ إِذَا كَانَا حَسَنِي الْهَيْئَةِ⁽⁸⁾. وَقَدْ كَانَ مِنْ جَمَلَةِ مَا نَقَمَ الْكَفَّارُ بِهِ عَلَى الرُّسُلِ بَشَرِيَّتَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَتَصَوَّرُونَ اتِّفَاقَ الْخَلْقَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الرُّسُلِ، وَأَنَّهُمْ يَظْهَرُونَ وَيَتَرَاءَوْنَ لِلنَّاطِرِ،

(1) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 4/48، 49، والسماراني، معاني النحو: 2/23.

(2) الأزهرى، تهذيب اللغة، وابن فارس، اللقائيس: (أنس).

(3) الزاغب، المفردات، ص: 94، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أنس).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (أنس)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 274.

(5) ابن فارس، اللقائيس: (بشر).

(6) الزاغب، المفردات، والسَّمين الحلي، عمدة الحفاظ: (بشر).

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بشر).

(8) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 276.

بل أرادوا غيرَ جنسِ البشرِ حتّى يؤمنوا؛ لذا كان إنكارُهم مقروناً بتعجبهم من بشريّة الرُّسل⁽¹⁾، ممّا سبقَ يظهرُ أنّ لفظَ (البشر) مقصودٌ منه أصلُ المادّة؛ فهُم إمّا أن يُرادَ بهم حُسنُ الهيئَةِ وتناسقُ الأعضاء، كما صرّحت بذلك آياتُ أصلِ الخلقِ، أو أنّ البشرَ سُمّوا بذلك لظهورهم كما كشفت آياتُ الرُّسل، ويندرجُ تحتها من الآيات ما يرادُ منها الصّورة، كقول الله ﷻ: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17]؛ أي: إنّ المَلَكَ تشبَّحَ لها وتراءى لها بصورةٍ بشر⁽²⁾، ولِعنايتهم بالمظهرِ عبّرَ بـ (بشرا).

(1) محمد الدّوري، دقائق الفروق اللّغوية في البيان القرآني، ص: 96.

(2) الرّاغب، المفردات: (بشر)، محمد الدّوري، دقائق الفروق اللّغوية في البيان القرآني، ص: 99.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م.ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف

مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 20، 812 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-768-17-3

يشتمل على ارجاعات ببلوجرافية.

مج. 20: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-768-17-3

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»